

كتابة مقدمة في علم الاقتصاد مهمة سهلة وصعبة معاً. إنها سهلة لأننا جميعاً، بطريقة أو بأخرى، مُلمون بعلم الاقتصاد، فمثلاً، ليس من الضروري أن يشرح لنا أحد ما هي الأسعار. لأننا نتعامل معها يومياً. قد يشرح لنا الخبراء السبب في دفع المصارف فائدة على المدخرات، أو السبب في أن الطريقة التي نسلكها في قياس الثروة تفتقد الكثير من العناصر التي تُبنى عليها عملية القياس، بيد أنه لا يوجد بين هذين السببين ما يعدُّ فكرة غريبة عنا. وبرغم أهمية علم الاقتصاد لنا، فلدينا أيضاً آراء فيما يجب عمله لوضع الأمور في نصابها عندما نشعر بأنها خاطئة. ونحن نتشبت بقوة بآرائنا لأن أخلاقنا تدفع سياساتنا، وسياساتنا توجه اقتصاداتنا. وعندما نفكر بمنهج علم الاقتصاد، فإننا لا نتساهل مع الأمور المشكوك فيها. وهكذا فإن نفس الأسباب التي تدفعنا إلى دراسة علم الاقتصاد، تقوم مقام حجر عثرة أمامنا، حتى عندما نحاول كشف النقاب عن الطريق التي يستعملها عالم الاقتصاد لصوغ ذاته. بيد أنه لما كان علم الاقتصاد يتناول هذه الطرق على مقياس واسع، فعلياً الأُنصَاب بالدهشة من أن معظم الاختلافات بين

الناس حول القضايا الاقتصادية ناتجة، في النهاية، من قراءاتهم «للحقائق» لا «القيم» التي يؤمنون بها. وهذا هو السبب في أن كتابة مقدمة في علم الاقتصاد أمرٌ صعب.

وعندما بدأتُ برسم الخُططِ لتأليف هذا الكتاب، لم يغب عن بالي أن أقدمَ للقراء نظرةً شاملةً إلى علم الاقتصاد كما يقدم في المجالات والكتب الاقتصادية. بيد أنه برغم القوة التحليلية التي تطفئ عليها طوال عقود، فلم أكن مرتاحاً في اختيار المواضيع التي تتناولها الكتب المقررة (الحياة الريفية في المناطق الفقيرة - أي الحياة الاقتصادية لبليونيون ونصف البليون من الناس - لا تذكر فيها إطلاقاً)، ولا في اختيار المواضيع التي يجري التركيز عليها في كبريات المجالات الاقتصادية (نادراً ما تظهر فيها الطبيعة بوصفها عنصراً نشيطاً). إضافة إلى ذلك، طلبتُ مني مطبعة جامعة أكسفورد كتابة مقدمة مختصرة جداً في علم الاقتصاد، علماً بأن ثمة كتباً جامعية في علم الاقتصاد عدد صفحاتها أكثر من 1,000! لذا شعرت بالصدمة من أنه يتعين عليّ التخلي عن خطتي الأصلية، وأقدمُ وصفاً للمحاكمة التي نجريها، نحن الاقتصاديين، بغية فهم العالم الاجتماعي المحيط بنا، ثم نشر هذه المحاكمة لتعم بعض أكثر المشكلات الملحة التي تواجهها البشرية في هذه الأيام. ولم أدرك إلا منذ عهد قريب أنه لا يمكنني عمل ذلك إلا إذا عرّضتُ مسار

حَيَاتِي اثْنَتَيْنِ مِنَ الْبَنَاتِ اللَّتَيْنِ اعْتَبَرَهُمَا حَفِيدَتَايَ الْأَدْبِيَتَيْنِ - بِيكِي  
Becky وَدَسْتَا Desta. إِنْ حَيَاتِي بِيكِي وَدَسْتَا جَدَّ مُخْتَلَفَتَيْنِ، بِيْدُ أَنَّهُ  
لَمَّا كَانَتَا حَفِيدَتِي، فَإِنِّي أَعْتَقِدُ بِأَنَّيَ أَفْهَمُهُمَا وَالْأَهْمُ مِنْ ذَلِكَ، هُوَ  
أَنْ عِلْمَ الْاِقْتِصَادِ سَاعَدَنِي عَلَى فَهْمَهُمَا.

إِنِ الْأَفْكَارَ، الَّتِي أقدَّمَهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ، سَبَقَ أَنْ أُطْرِقَتْ  
وَبُحِثَتْ فِي كِتَابِي بِعَنْوَانِ An Inquiry into Well-Being and  
Distribution (الَّذِي نَشَرْتُهُ Clarendon Press عَامَ 1993).  
وَخِلَالَ كِتَابَتِي لِهَذَا الْكِتَابِ، أَدْرَكْتُ أَنَّ عِلْمَ الْاِقْتِصَادِ كَانَ يَدْفَعُ  
أَخْلَاقِيَّاتِي بِقُوَّةٍ مُتَزَايِدَةٍ، وَأَنَّ أَخْلَاقِيَّاتِي بِدَوْرِهَا وَجَّهَتْ سِيَاسَتِي.  
وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ سَلْسَلَةٌ سَبَبِيَّةٌ غَيْرَ عَادِيَّةٍ، فَقَدْ كَانَ الْكِتَابُ السَّابِقُ  
أَكْثَرَ تَقْنِيَّةً وَ«أَثْقَلَ عِيَاراً» بِقَدْرِ كَبِيرٍ. هَذَا وَإِنِ التَّقَدِّمَاتِ النَّظَرِيَّةِ  
وَالتَّجْرِبِيَّةِ الَّتِي حَدَثَتْ فِي عِلْمِ الْاِقْتِصَادِ مِنْذِ نَشْرِ الْكِتَابِ قَادَتْنِي  
إِلَى التَّمَسُّكِ بِوَجْهَةِ نَظْرِي الَّتِي أوردتها هُنَاكَ حَتَّى بِقُوَّةٍ أَشَدِّ. لَقَدْ  
فَهَمْتُ أَشْيَاءَ أَفْضَلَ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُ أَفْهَمُهَا آنَذَاكَ - وَمِنْ ضَمْنِهَا  
أَسْبَابَ عَدَمِ فَهْمِي لكَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ. وَكِتَابِي الْحَالِي لَيْسَ سِوَى  
إِمْتِدَادٍ لِكِتَابِي السَّابِقِ.

وَخِلَالَ إِعْدَادِي لِهَذَا الْكِتَابِ، اسْتَفْتَدْتُ كَثِيراً مِنَ الْمُرَاسَلَاتِ  
وَالْمُنَاقَشَاتِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ K. Arrow، G. Daily، C. Dasgupta، P. Ehrlich، P. Geraats، L. Goulder، T. Gowers،

R. Hassan, S. Iyer, P. Krishnan, S. Levin, K. Mäler, E. Maskin, P. Mukhopadhyay, K. Mumford, R. Nolan, S. Ogilvie, K. Oleson, A. Patel, S. Pattanaik, W. Peterson, H. Sabourian, D. Schrag, P. Shyamsundar, J. Vincent, M. Weale, G. Wright

ويبين محتوى الكتاب الحالي أثر التعليقات التي تسلمتها في مسودة سابقة من K. Arrow, C. Dasgupta, G. Harcourt, M. S. Pilkington, R. Solow, S. Tomaselli, Shaw. وقد ساعدتني هذا الكتاب للنشر. لذا فإنني شاكر لهم جميعاً.

كلية القديس جون

كيمبردج

أغسطس / آب / 2006

## التعليقات على صور الكتاب

- الصفحة 18: 1. بيت بيكي.
- الصفحة 19: 2. بيكي على دراجتها الهوائية متجهة إلى مدرستها
- الصفحة 20: 3. بيت دستا.
- الصفحة 21: 4. دستا في عملها.
- الصفحة 95: 5. الأطفال وهم يجمعون الحطب الذي يستعملونه للوقود من الأراضي المشاع المحلية.
- الصفحة 112: 6. العلاقات بين معدل الولادات المرغوب في أسرة متوسطة ومعدل الولادات الإجمالي في المجتمع.
- الصفحة 130: 7. درس حبوب التّف في إثيوبيا.
- الصفحة 138: 8. منحني العرض والطلب.
- الصفحة 152: 9. مركز تسوّق كبير في عالم بيكي.
- الصفحة 153: 10. سوق في عالم دستا.
- الصفحة 171: 11. براءة اختراع لبيانات قيثارية harpsichords تعود إلى القرن الثامن عشر.
- الصفحة 202: 12. المتاجرة في سوق أسهم (بورصة) فرانكفورت

obeikandi.com

## قائمة الجداول

- الجدول 1. الأمم الغنيّة والفقيرة 47
- الجدول 2. تقدّم الأمم 234
- الجدول 3. مقارنة القواعد الانتخابية 266

obeikandi.com

## توطئة

### عالمُ بيكي Becky

إن بيكي، التي تبلغ العاشرة من العمر، والتي تعيش مع والديها وأخٍ أكبر منها اسمه سام، تقيم في إحدى ضواحي مدينة تقع في الغرب الأوسط من الولايات المتحدة الأمريكية. يعمل والد بيكي في شركة متخصصة في قانون الملكية. دخله السنوي متغير قليلاً، بسبب تغير أرباح الشركة، لكنه نادراً ما يقل عن 145,000 دولار أمريكي. وقد تعرّف الوالدان أحدهما على الآخر في الكلية. عملت الأم بضع سنوات في النشر، غير أنها قررت، بعد ولادتها سام، التركيز على رعاية عائلتها. وبعد دخول بيكي وسام كليهما المدرسة، صارت تمارس عملاً طوعياً في مجال التعليم المحليّ. تسكن العائلة في بيت ذي طابقين، فيه أربع غرف للنوم وحمامان في الطابق العلويّ، ومرحاض في الطابق السفليّ، وغرفة طعام كبيرة، وغرفة جلوس في القبو، وثمة قطعة صغيرة من الأرض في الفناء الخلفي للبيت يستعملها أفراد العائلة في أوقات الراحة.

ومع أن بيتهم مرهون جزئياً، فإنّ والدي بيكي يملكان أسهماً وسندات مصرفية وحساباً للتوفير في الفرع المحليّ لمصرف وطنيّ.



### أ. بيت بيكي

هذا وإن والد بيكي وشركته يدفعان معاً أقساطاً شهرية لحصوله على معاشٍ تقاعدي بعد تركه عمله. وهو أيضاً، يؤدي دفعاتٍ شهريةً وفق مخططٍ مع المصرف لتسديد نفقات تعليم بيكي وسام. ثم إن موجودات العائلة وحياة أفرادها مؤمنٌ عليها.

وغالباً ما يلاحظ والدا بيكي أن يلزما جانب الحذر فيما يتعلّق بالنقود، لأنّ الضرائب الاتحادية عالية؛ وهما حذران فعلاً. ومع ذلك، فهما يملكان سيارتين؛ ويشارك ابنتهما وابنتهما في مخيمٍ صيفيٍّ كل سنة؛ وتقضي العائلة إجازةً معاً بعد انتهاء المخيم. ويلاحظ، والدا بيكي أيضاً، أن جيّلتهم سيعيش حياةً أكثر ازدهاراً



2. بيكي على دراجتها الهوائية متجهة إلى مدرستها وسعادةً من جيلهما. فبيكي تريد حماية البيئة، وتصرّ على الذهاب إلى مدرستها ممتطيةً درّاجةً هوائيةً، وهي أن تصبح طبيبةً.

## عالمُ دَسْتَا Desta

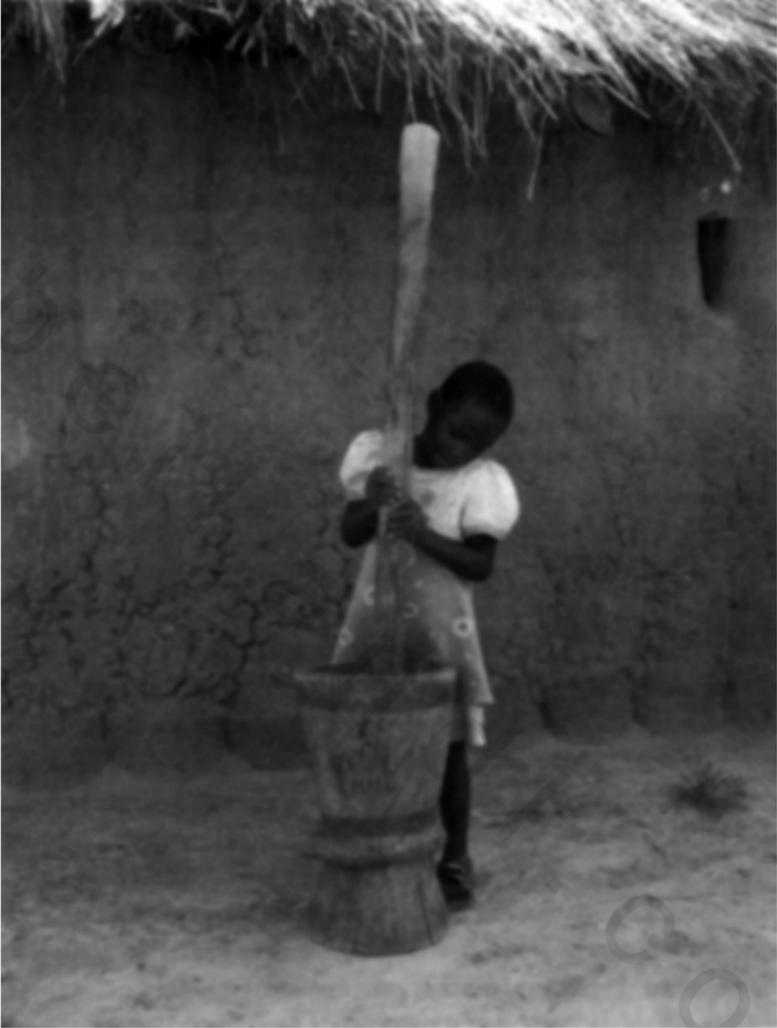
دستا، التي عمرها قرابة عشر سنين، تعيش مع والديها وخمسةٍ من أشقائها وشقيقاتها في قريةٍ في غرب إثيوبيا شبه الاستوائية. وتسكن العائلة في كوخٍ من الطين، مؤلفٍ من غرفتين، وسقفه مكوّنٌ من العشب. يعمل والدا دستا في زراعة الدّرة، ونوعٍ من الحبوب يسمى تِفّ (يُستعمل على نطاقٍ واسعٍ في إثيوبيا، ولا يُزرع إلاّ



3. بيت دستا

فيها)، على نصف هكتارٍ من الأرض التي منحته إياها الحكومة. ويقوم أحد أشقاء دستا، الذي يكبرها سنّاً، بمساعدة والدها في زراعة الأرض والاعتناء بمواشي العائلة، المؤلفة من بقرة ومعزاة وبضع دجاجات. وفي حين تباع الكمية القليلة من حبوب التف التي تُنتج للحصول على دخل نقديّ، فإن معظم الذرة تُستهلك بوصفها مادةً غذائية رئيسية.

أما والدة دستا فتقوم بالعمل في قطعة أرض صغيرة مجاورة للكوخ، فتزرع الملفوف والبصل ونوعاً من الجذور يسمى إنست (enst) وهو نبات حوْلِيٌّ يُستعمل، أيضاً، على نطاق واسع هناك). وبغية زيادة



4. دستا في عملها

دخل عائلتها، فهي تخمّر مشروباً محلياً مصنوعاً من الذرة. وبسبب كونها مسؤولة أيضاً عن الطبخ والتنظيف والاعتناء بالأطفال، فإن عملها اليومي يمتدّ عادة 14 ساعة. وبرغم هذه الساعات الطويلة،

فلن يكون بإمكانها إتمام المهمات الملقاة على عاتقها. (لما كانت كلُّ العناصر التي يُعدُّ منها الطعام من المواد الأولية النقيّة، فإن عملية الطبخ وحدها تستغرق خمس ساعاتٍ أو تزيد.) لذا فإن دستا وإحدى أخواتها، التي هي أكبر منها، تساعدان والدتهما في إنجاز بعض الواجبات المنزليّة البسيطة، ترعيان مَنْ هُمَّ أصغر منهما سنّاً من إخوتهما. ومع أن ثمة أختاً أصغر لهما يذهب إلى مدرسةٍ محليّة، فلم يسبق لدستا ولا لأختها الكبرى التسجيل في تلك المدرسة. هذا وإن والديهما لا يستطيعان القراءة ولا الكتابة، لكنهما يستطيعان العدّ.

لا يوجد في بيت دستا كهرباء ولا ماءً جارٍ. فمصادر المياه، وأراضي رعيّ المواشي، والغابات المحيطة بالبيت الذي يعيشون فيه، كلها ملكية عامة. صحيح أنهم يتقاسمون الانتفاع بها مع الناس الذين يسكنون في قرية دستا، لكنّ هؤلاء القرويين لا يسمحون للغرباء بالإفادة منها. لذا تقوم والدة دستا وإخوتها كل يوم بإحضار الماء والحطب للتزود بالوقود، كما يقطفون ثمر العليق والأعشاب من الأراضي المشاع المحليّة. وتتذمر والدة دستا مراراً من أن الوقت والجهد المبذولين لتوفير حاجاتها اليومية يتزايدان باطرادٍ سنةً بعد أخرى.

لا وجود لمؤسسة مالية لتقدّم قروضاً أو تأميناتٍ. ونظراً إلى كون الجنازاتٍ مناسباتٍ مكلفّة، فقد شارك والدا دستا قبل مدة

طويلة في صندوق للتأمين الاجتماعي يدفع له أقساطاً شهرية. وعندما اشترى والدا دستا البقرة التي يملكونها الآن، سَحَبَ كل ما أودعه في الصندوق واحتفظ به في بيته، لكنَّ تعيّن عليه زيادة هذا المبلغ عن طريق الاقتراض من أنسبائه بعد أن وعدهم بتسديد دينه عندما يصبح قادراً على ذلك. وبالمقابل، فعندما يكون أنسابوه بحاجة إلى شيء، فَهَمَّ يأتون إليه طلباً للحصول على قرضٍ منه، وهو يستجيب إلى طلبهم إذا كان قادراً على ذلك. ويقول والدا دستا إن هذه الأنماط من التبادلية التي يمارسونها مع الأفراد المقربين منه تمثل جزءاً من ثقافتهم. ويضيف إلى ذلك قوله إن أولاده هم سندهُ الرئيسيُّ، لأنهم هم الذين يحتضنونه ويرعونه مع زوجته عندما يصبحان متقدمين في السنّ.

ويقدّر الخبراء في الإحصاء الاقتصادي أنه لدى الأخذ في الاعتبار الفروق في تكاليف المعيشة بين أثيوبيا والولايات المتحدة، فإن دخل عائلة دستا يعادل زهاء 5,000 دولار في السنة، يأتي 1,100 منه من المحاصيل التي تجنيها العائلة من الأراضي المشاع المحلية. بيد أنه لما كانت كمية الأمطار تختلف من سنة إلى أخرى، فإن دخل عائلة دستا يتقلب بقدرٍ كبير. ففي السنوات السيئة، نرى أن الحبوب التي تخزنها العائلة في البيت تُستنزف بقوة قبل موسم الحصاد القادم. لذا فإن الطعام هو من الندرة بحيث تصبح صحتهم، لا سيما

الأطفال الصغار منهم، أسوأ فأسوأ. ولا يستعيدون قوتهم ووزنهم إلا بعد موسم الحصاد. وصار يعني تعرّضهم للجوع وإصابتهم بالأمراض دورياً، أنّ دستا وأخوتها توقّفوا عن النمو إلى حد ما. وعلى مر السنين، فقدّ والدا دستا طفلين في مستهلّ عمريهما، بعد أن أُصيب أحدهما بالملاريا، والآخر بالإسهال. وحدث، أيضاً، لوالدتها عدة حوادث إجهاض.

تعرّف دستا أنها ستتزوج (مزارعاً، على الأرجح، مثل أبيها) بعد خمس سنواتٍ من الآن، وعندئذ ستسكن في أرض زوجها الموجودة في قرية مجاورة. وهي تتوقع أن تكون حياتها مشابهةً لحياة أمها.

## جدول أعمال (أجندة) العالم الاقتصادي

أن تكون الحياة، التي بوسع الناس تحقيقها، مختلفة كثيراً بين مكانٍ إلى آخر على كرتا الأرضية، هو شيء عاديٌّ ومألوف. وفي عصرنا الذي يتيسر فيه السفر، فإن هذا الاختلاف حقيقةً يمكن رؤيتها جهاراً. وأنّ تواجه بيكي ودستا مستقبلين مختلفين جداً، هو، أيضاً، شيء علينا توقّعه، بل ربما كان علينا قبوله أيضاً. ومع ذلك، فقد لا نكون بعيدين عن الواقع إذا تصوّرنا أن الفتاتين متشابهتان جداً جوهرياً: فكلتاها تستمتع باللعب، والأكل، والانهماك في القيل والقال؛ إنهما قريبتان من عائلتيهما؛ وهما تلجان إلى والدتيهما

للتعبير عن أحزانهما؛ وتحبّان ارتداء ملابس جميلة؛ وكلتاهما قادرةٌ على تحمّل الإحباط والمضايقة، وعلى الشعور بالسعادة.

كذلك، فإنّ والدَيّ دسّتا يشبهان والدَيّ بيكي. فهم جميعاً يدركون تماماً طُرُقَ عالميَّهم. إنهم، أيضاً، مهتمّون برعاية عائلتيهم، وبيجاد طرائق ذكيّةٍ لمواجهة المشكلات التي يتكرّر حدوثها في الحصول على الدّخل، وتوزيع الموارد بين أفراد عائلتيهم، والتعامل مع الأحداث غير المتوقعة. لذا، فإنّ الأسلوب السليم في اكتشاف الأسباب الكامنة وراء الظروف الحياتية المختلفة جدّاً، يبتدئ بملاحظة أنّ الفرص والعقبات التي تواجهها العائلتان مختلفة جدّاً، وأن عائلة دسّتا مقيدة، بدرجة أعلى كثيراً من عائلة بيكي، في قدرتها على أن ترقى إلى وضعٍ تصبو إليه، وعلى أن تمارس العمل الذي تريده.

ويبذل علماء الاقتصاد جهوداً حثيثةً لكشف العمليّات التي تؤثر في جعل الناس يعيشون الحياة التي وصلوا إليها. وهم يحاولون، أيضاً، تعرّف الطرائق التي تؤثر في تلك العمليّات التحسين أوضاع أولئك الذين لا يستطيعون تجاوز ما يمكن أن يعملوه، وما يمكن أن يكونوه؛ وفي حين يتطلب كشف العمليّات إيجاد تفسيرات لها، فإنّ تعرّف طرائقها يستلزم تحديد قواعد لتطبيقها. ويجري علماء الاقتصاد، أيضاً، تنبؤات بما ستكون عليه ظروف الحياة الاقتصادية؛ بيد أنه إذا كان علينا أن نحمل تكهناتهم على محمل الجدّ، فلا بد من

بنائها على فهمٍ للعمليات التي تصوغ حياة الناس، وهذا يفسر سبب كون محاولة إيجاد التفسيرات تسبق إجراء التنبؤات.

إن السياق الذي يُبحث فيه عن التفسيرات، أو تحدّد فيه القواعد، قد يكون أسرةً، أو قريةً، أو مقاطعةً، أو بلداً، أو حتى العالمَ كُلَّهُ - فالمدى الذي يتجمع فيه الناس أو الأماكن، لا يعكس سوى التفاصيل التي نختار بها دراسة العالم الاجتماعي. تصوّر أننا نرغب في فهم الأساس الذي يُبنى عليه تقاسمُ الطعام بين أفراد الأسرة في مجتمعٍ ما. ما من شكٍّ في أنه يُتوقّع من دخل الأسرة أن يؤدي دوراً ما؛ لكننا بحاجة إلى النظر إلى دخل الأسر إذا كنا نودّ اكتشافَ ما إذا كان الطعامُ موزَّعاً على أساسِ السنِّ، والجنس، والوضع الاجتماعي. فإذا وجدنا أن هذه هي الحال، وجب علينا التساؤل عن أسباب تأدية هذه الأشياء الثلاثة دوراً ما، وعن قواعد هذه السياسة التي تُفرضُ نفسها، إن وُجدَ مثل هذه القواعد. وبالمقابل، لنفترض أننا نريد أن نعرف ما إذا كان العالمُ، ككُلِّه، أكثر ثراءً اليوم ممّا كان قبل 50 عاماً. ولَمّا كان السؤالُ هو عن المتوسطات العالمية، فقد يكون لنا مسوِّغٌ في تسوية الفروق ضمن الأسر وبينها.

إن أخذ المتوسط averaging مطلوبٌ على مرّ الزمن أيضاً. والقصد من الدراسة وتكلفة جمع المعلومات يؤثران في اختيار وحدة

الزمن الذي يُجْرَى خلاله أَخْذُ المتوسّط. فمثلاً، يُجْرَى إحصاءٌ لعدد السكان في الهند كلَّ عشر سنوات. إن إجراء هذا الإحصاء بفواصل زمنية تقلّ عن عشر سنوات سيكون أعلى تكلفةً، ولن يقدمَ معلومات إضافية لها أيُّ أهمية كبيرة. وبالعكس، إذا تعيّن علينا دراسة التغيرات في حجم المبيعات الوطنية وفق الفصول، فلو أجرينا حتى إحصاءات سنوية، فلن نستطيع تقديم وصف كافٍ لهذه التغيرات. وتوفر الإحصاءات الشهرية للمبيعات الوطنية تسوية مفصلة بين الوصف المفصل، وتكلفة الحصول على الوصف المفصل.

إن علم الاقتصاد الحديث، وأعني به الأسلوب الذي يدرّس ويمارس به علم الاقتصاد في هذه الأيام في الجامعات الرئيسية، يميل إلى البدء في التساؤلات من الأساس إلى القمة: من الأفراد، إلى الأسرة ثم القرية ثم المقاطعة ثم الولاية ثم البلد، وصولاً إلى العالم كلّه. وبدرجات متفاوتة، تصوغ ملايين القرارات الفردية النتائج المحتملة التي يواجهها الناس. وتخبرنا النظرية والفترة السليمة والأدلة أن ثمة عدداً هائلاً من العواقب لما نفعله كلُّنا. بعض هذه العواقب كانت مقصودة، لكن كثيراً منها كان غير مقصود. بيد أن تلك العواقب تشكّل بدورها ما يمكن أن يفعله الناس فيما بعد، أو يختارون فعله. فعندما تقود عائلةً بيكي سيارتها أو تستعمل الكهرباء، أو عندما تحرق عائلة دستاً أوراق الشجر أو الحطب للطبخ، فإنهما يضيفان

إلى العالم إصدارات كاربونية. ومع أن إسهامهما في هذا الضرر محدود جداً دون ريب، لكن الملايين من هذه الإسهامات المحدودة تتراكم لتصبح آثارها كبيرة، ولهذا عواقب سيئة تؤثر في الناس في أي مكان وُجدوا فيه، وبطرق مختلفة. ومن المدهش أن النتائج غير المقصودة يمكن أن تتضمن سمات طارئة، مثل أسعار السوق التي يكون فيها طلب السلع معادلاً، تقريباً عرضها.

قَدِّمْتُ فيما سبق وصفاً لحياة كل من بيكي ودستا. لكن فهم حياتهما يتطلب أكثر من هذا الوصف؛ إنه يستلزم تحليلاً يقتضي مزيداً من الوصف. ولإجراء هذا التحليل، نحتاج قبل كل شيء إلى تعرّف المظاهر المادية لأسرتيهما - الآن وفي المستقبل، وذلك في حال حدوث حالات طارئة غير مؤكدة. ثانياً، نحن بحاجة إلى كشف طبيعة خياراتهما، والطرق التي يسلكها لتحديد هذه الخيارات ملايين من الأسر من أمثال أسرتي بيكي ودستا، والتي أوصلتهم إلى ما يواجهونه. ثالثاً، نحن بحاجة إلى كشف الطرق التي سلكتها العائلات لتصل إلى ظروفها المعيشية الحالية.

ويتطلب هذا التحليل جهداً كبيراً، بل منفرأً. إلى ذلك، ثمة فكرة يمكنها ملاحظتنا هي: ما كان من المحتمل أن يؤثر كل شيء في أي شيء آخر، فكيف يمكننا فهم العالم الاجتماعي؟ لكن إذا ما سمحنا للقلق أن يسيطر علينا، فلن نحرز أي تقدم أبداً. وكلُّ نظام

أو فرع معرفي تآلفت معه، يقتضي إعداد رسوم كاريكاتورية للعالم كي يصبح مفهوماً. ويقوم عالم الاقتصاد الحديث بفعل هذا عن طريق بناء النماذج models، التي تستخلص تمثيلات للظاهرة التي ندرسها. وهذا الاستخلاص شائع بين علماء الاقتصاد، وهو يركز على عامل سببي أو عاملين، ويستثني أي شيء آخر، أملاً في أن هذا سيمكّننا من فهم كيفية عمل هذه المشاهد في عالم الواقع، وكيفية تفاعلها. وقد وصف الاقتصادي جون مينارد كينز J.M. Keynes موضوعنا كما يلي: علم الاقتصاد هو علم للتفكير بلغة النماذج، وهو مرتبط بفض اختيار النماذج الوثيقة الصلة بالعالم المعاصر.

وعندما يتعامل علماء الاقتصاد مع أشياء قابلة للقياس (الكالوريات المستهلكة، عدد ساعات العمل، أطنان الفولاذ التي أنتجت، أميال الكبال cables التي جرى تمديدُها، الكيلومترات المربعة المدمرة من الغابات الاستوائية)، تكون النماذج، دوماً تقريباً، إنشاءات رياضية. ومن الممكن إيرادها بالكلمات، لكن الرياضيات هي أسلوب فعال جداً للتعبير عن بنية نموذج ما، والأهم من ذلك، لاكتشاف اقتضاءات نموذج ما. وقد عرّف المتخصصون في الرياضيات التطبيقية والفيزيائية هذا منذ زمن بعيد، لكن الاقتصاديين لم يعتمدوا هذا التكتيك البحثي إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، وهذا يصحّ على فروع أخرى مرتبطة

بالاقتصاد، مثل علم البيئة. وَفَنُ النمذجة الجيدة هو توليد قدر كبير من الفهم نتيجة التركيز على عدد صغير جداً من العوامل السببية. وأقول كلمة «فن» بسبب عدم وجود صيغة لتوليد نموذج جيد. ويستند الحكمُ الدقيق على نجاح نموذج ما إلى كون هذا النموذج متميزاً بين تفسيرات بديلة للظاهرة التي يعبر عنها هذا النموذج. وتكون تلك النماذج التي تجتاز بنجاح الاختبارات العملية مقبولة - لمدة قصيرة على الأقل - إلى أن يرد دليلٌ يُلقي ظلالاً من الشك عليها؛ وفي مثل هذه الحالة يعود الاقتصاديون إلى لوحة الرسم لإيجاد نماذج أفضل (وليست أكبر بالضرورة!)، وهكذا.

إن هذه المنهجية التي أوردتها هنا، باختصارٍ شديدٍ، تمكّن الخبراء الاقتصاديين من إجراء نمطٍ من التنبؤ لا يتضمن التنبؤ بالمستقبل، لكنه يقدم، بدلاً من ذلك، تنبؤات لما ستكشف عنه المعطيات (البيانات) data التي لم تُجمَع بعد من العالم المعاصر، هذا عملٌ محفوفٌ بالمخاطر، بيد أنه إذا كان على نموذجٍ أن يُلقي الضوء على شيء، فمن الأفضل ألاّ يكتفي بمجرد تقديم تفسيراتٍ بعد انتهاء الأحداث.

وحتى عهد قريب، كان علماء الاقتصاد يدرسون التاريخ الاقتصادي بنفس الطريقة تقريباً التي كان يدرس بها المؤرخون التاريخ الاجتماعي والسياسي. كانوا يحاولون إماطة اللثام عن

الأسباب التي جعلت الأحداث في مكان معين تجري بالطريقة التي جرت بها، وذلك بتحري ما كانوا يعتقدون بأنها الدوافع الرئيسية لهذه الأحداث. وكان التوكيد موجهاً إلى وحدانية الأحداث التي كانت موضوع الدراسة. وكان يتضمّن موضوع البحث التقليدي آنذاك السؤال عن سبب حدوث أول ثورة صناعية في القرن الثامن عشر، وعن سبب حدوثها في إنكلترا. وكما ترى، كان السؤال مؤسساً على ثلاثة افتراضات هي: كان ثمة ثورة صناعية؛ وأنها حدثت في القرن الثامن عشر؛ وأنها شبّت في إنكلترا. وبالطبع، فقد جرى دراسة هذه الفرضيات الثلاثة كلّها، بيد أنه كان ثمة قدر هائل من العمل لا بدّ من إنجازه، حتى بين أولئك الذين توصلوا إلى هذه الافتراضات انطلاقاً من دراسة تاريخية لها. ومهما يكن من أمر، فإن الأدبيات، المتعلقة بهذه الأسئلة، هي واحدة من المنجزات العظيمة في التاريخ الاقتصادي.

وفي السنوات الأخيرة، أضاف الخبراء الاقتصاديون طريقة إحصائية إلى الدراسة التي أجريت سابقاً. وهذه الطريقة الجديدة تظل قريبة من النظرية الاقتصادية، وذلك بالإلحاح على عمومية العمليات التي تصوغ الأحداث. وهي تتبنّى وجهة النظر القائلة بأن النظرية يجب أن تكشف النقاب عن تلك السمات المشتركة بين السبل الاقتصادية في الأماكن المختلفة، وفي أوقات مختلفة. ويقر الجميع

بأنه لا يوجد اقتصادان متطابقان، لكن الاقتصاديين المعاصرين يهتمون بالقضايا المشتركة بين التجارب الإنسانية، لا بالقضايا المختلفة بينها. لنفرض أنك تريد تحديد السمات المعاصرة في عالمي دستا وبيكي، التي تعلل أسباب كون مستوى معيشة دستا أخفض كثيراً من مستوى معيشة بيكي. ثمة مجموعة من النماذج الاقتصادية التي تخبرك أن تلك السمات تُمثل بالمتغيرات  $X$ ،  $Y$ ،  $Z$ . ما عمله هو أنك تتحرى الإحصائيات العالمية للمتغيرات  $X$ ،  $Y$ ،  $Z$  انطلاقاً من عينة لبلدان، ربما كان عددها 149. الأرقام تختلف من بلد إلى آخر، لكنك تعتبر المتغيرات نفسها عوامل تفسيرية مشتركة بين كل البلدان الواردة في العينة. وبعبارة أخرى، فإنك تعتبر اقتصاديات تلك البلدان كلها متوازية، وتعامل السمات، التي تختلف بين بلد وآخر، على أنها خاصة بكل بلد. وبالطبع، فأنت لا تملك الحرية الكاملة لنمذجة تلك البلدان ذات السمات المختلفة بأي طريقة تشاء. فالنظرية الإحصائية - التي تسمى في السياق الحالي الاقتصاد القياسي *econometrics* - تفرض حدوداً على الطريقة التي تتبعها في نمذجتها.

واستناداً إلى المعطيات عن البلدان التي عددها 149 في عينتك، يمكنك الآن اختبار ما إذا كان يجب عليك الوثوق بأن  $X$ ،  $Y$ ،  $Z$  هي العوامل التي تحدد مستوى المعيشة. لنفترض أن الاختبارات تنبئك أن بإمكانك الوثوق بالعوامل. عندئذٍ، سيمكّنك إجراء مزيد من

التحليل باستعمال المعطيات، من تحديد مقدار التغيير في مستوى المعيشة في العينة، الذي يمكن تفسيره بتغيرات في  $X$  في العينة، وبتغيرات في  $Z$ ، وبتغيرات في  $Z$ . وستزودك تلك النسب بإحساس بالأهمية النسبية للعوامل التي تحدّد مستوى المعيشة. لنفترض أن 80 بالمئة من التغيير في مستوى المعيشة في البلدان الـ 149 يمكن تفسيرها بتغيير في  $X$  في العينة، وأن العشرين بالمئة المتبقية تفسّر بتغيرات في  $Z$ ،  $Y$ . عندئذ ليس من مُسَوِّغٍ لك الاستنتاج أن  $X$  هو المتغير التفسيري الرئيسي.

ثمة مشكلات ضخمة في تطبيق علم الإحصاء في المعطيات الاقتصادية. وعلى سبيل المثال، فقد يحدث أن توحى نماذجك الاقتصادية، إذا أخذت معاً، بإمكان وجود عوامل، عددها 67، مثلاً، تحدّد مستوى المعيشة (لا العوامل  $X$ ،  $Y$ ،  $Z$  فقط). لكنّ لديك عينة من 149 بلداً فقط، وأيُّ خبيرٍ بالإحصاء سيخبرك الآن أن 149 عددٌ جدُّ صغيرٍ في مهمّة إمالة اللثام عن دور العوامل التي عددها 67. وهناك مسائل أخرى تُقلِّق الخبراء في الاقتصاد القياسي، لكنّ قَبْلَ أن تهجر الإحصاءات وتعود ثانية إلى الأسلوب القصصي للمحادثات، المبني على الملاحظة والاختبار، اطرح على نفسك السؤال التالي: لماذا يجب على أي شخص تصديق حكاية تاريخية رواها عالمٌ دون أن يصدّق آخر؟ وربما تتساءل عمّا إذا كانت التزعة

الأديبة للعالم قد أثرت في استحسانك لعمله. وسيعيد شخص ما طمأننتك بأن مؤلف الحكاية التاريخية يملك نموذجاً موجوداً في عقله. سيخبرك أن نموذج المؤلف أثر في خياره للأدلة التي عرضها في عمله، وأنه لم يخترها إلا بعد أن محص قدرأ كبيراً من الأدلة. وأنت تسأل كيف يتعين عليك الحكم ما إذا كان نموذج المفاهيمي أفضل من نموذج شخص آخر. ما الذي يعيدنا إلى مشكلة اختيار نماذج بديلة من الظواهر الاجتماعية. سنكتشف في الفصل التالي أن الحكايات التاريخية تستمر في أداء دور هام في الاقتصاديات الحديثة، لكنها أعدت للعمل بالاشتراك مع بناء النماذج واختبارات الاقتصاديات القياسي.

ثمة افتراضات ضمنية تشكل الأساس لاختبارات الاقتصاد القياسي يصعب تقييمها. لذا فإن الإحصاءات الاقتصادية غالباً ما تكون نصف شفافة في أحسن الأحوال. وليس من غير المؤلف لكثير من النماذج المتنافسة أن تتعايش معاً، وأن يكون لكل منها أنصاره. فبناء النموذج، والمعطيات، والمتاحة *availability*، والحكايات التاريخية، والتقدمات في تقنيات الاقتصاد القياسي، يعزز بعضها بعضاً. ويعبر عالم الاقتصاد روبرت سولو Robert Solow عن هذا بقوله: «الحقائق تتطلب إيضاحات، والإيضاحات تتطلب حقائق جديدة».

في هذه الدراسة، أودّ أولاً منحكم شعوراً بالطريقة التي يسلكها علماء الاقتصاد في إمطة اللثام عن الأساليب الاقتصادية التي تصوغ حياة بيكي ودستا. وسأقوم بذلك بمعالجة ثلاثة أنواع من الأسئلة التي ذكرنا سابقاً أنها تستحوذ على اهتمامنا. سأشرح بعد ذلك السبب في حاجتنا إلى سياسات اقتصادية، والطريق الذي يجب سلوكه لتحديد الأشياء الجيدة. وبالطبع، فسنبني نماذج خلال مسيرتنا، لكننا سنستعمل، في الأغلب، كلمات لشرحها. وسأشير أيضاً إلى المكتشفات التجريبية التي تحققت في الأنثربولوجيا (علم الإنسان)، وعلم السكان، وعلم البيئة، والجغرافية، والعلوم السياسية، وعلم الاجتماع، وبالطبع، علم الاقتصاد ذاته. لكن العدسة التي سندرس من خلالها العالم الاجتماعي هو علم الاقتصاد. وسنقبل بوجهة نظرٍ تتعلق بظروف المعيشة التي تُبرز أهمية تخصيص الموارد النادرة - بين المعارين وعبر الأجيال. وتتلخص فكرتي في مرافقتكم في جولةٍ لتروا مدى قدرتنا على التوصل إلى فهم العالم الاجتماعي المحيط بنا وما وراءه.